حافظ إبراهيم(١)

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لن يَعُد حافظ بيننا إلا شعرَه ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ ! ما نظرتُ في صفحةٍ ممَّا بين يديَّ إلا وأحسستُ أنَّ ذلك الشَّاعر العظيم يقول في بيانه الرَّائع وصناعته البديعة : أنا هُنا !

ولغةُ هذا الشِّعر المتدفِّعة بالحياة كأنَّ كلماتها القويَّةَ عروقٌ في جسم حيٍّ متوثب ؛ لم تخرج عن أن تكون هي العربيَّة المبينة في جزالتها ، ونصاعتها ، ودقَّة تركيبها البيانيِّ ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كلِّه من يكابر ، أو يماري في أنَّها هي لغة حافظٍ وحدَه ، كأنَّه أرغم التَّاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره .

وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب ، والضَّعف ، والنَّقص ، سأشير إلى بعضها ، ولكنِّي على ما أعرفه أجد هذا الشِّعر كالتَّيَّار يُعبُّ عُبابه ، لا يبالي ما تناثر منه ، وما ركد ، وما وقع في غير موقعه ؛ إذ كانت عظمته في اجتماع مادَّته ، لا في أجزاء منها ، وفي السِّرِّ الَّذي يدفعها في كلِّ موضعٍ لا في المظهر ؛ الَّذي تكون به في موضعٍ دون موضعٍ ؛ فهو أبداً يقول لمن يتصفَّح عليه ، أو ينتقده : انظر لما بقي .

* * *

ترجع صداقتي لحافظ ـ رحمه الله ـ إلى سنة ١٩٠٠ ، أوَّل عهدي بالأدب ، وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذٍ بناءه الأدبيَّ عالياً ، فعالياً إلى الذُّروة الَّتي انتهى إليها ؛ وأخلص لي ثقته ، وأصفاني مودَّته ، وكان هَمَّك من أخٍ كريمٍ ، وله في نفسي مكانٌ لم ينكره مذْ عرفتُه ، ولم يضق بمحبَّته منذ اتَّسع لها ، وكنت وإيَّاه يرى أحدنا الآخر من هذه اللُّغة كالجانبين لصورةٍ واحدةٍ . لا يتهيَّأ في الطَّبيعة أن يختلفا ، والصُّورة بعدُ قائمةٌ ، ولا أن تضطرب ما بينهما ، والصُّورة منهما على وزنٍ وتقديرٍ .

---

(١) المقتطف ، أكتوبر ، (١٩٣٢) . (س) .

ولكن هذا لا يمنعني أن أقرِّر : أنَّه كان عندي أكبر من شعره ، ولعلَّه كذلك عند كلِّ من خلطوه بأنفسهم ، فإنَّه يتعاظمك بنفسِه القويَّة ، والمعنى الَّذي تحسُّهُ في العبقريِّ ، ولا تدري ما هو ؟! وذلك من سحر العبقريِّين ، وأثرهم في نفس من يتَّصل بهم ، فيتَّسقُ لهم أمران من أمرٍ واحدٍ ، وحظَّان بحظٍّ ، ونصيبان بنصيبٍ ؛ لأنَّ مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوَّة الَّتي أبدعت هذه الآثار ، ففي ذواتهم المحبوبة يستمرُّ الإعجاب كالسَّائر على طريقٍ لا موقف عليه ، وفي آثارهم يكون الإعجاب في موقفٍ انتهت الطَّريق به ، فوقف على حدٍّ إنْ بَعُد ، وإن قَرُب .

لا جرم كان شاعرنا عبقريّاً ، عجيب الصَّنعة ، قويَّ الإلهام ، بليغ الأثر في عصره ، يشبه تحوُّلاً وقع في صورةٍ من صور التَّاريخ ، ولكنَّه كذلك في مذاهب مِنَ الشِّعر دون غيرها ، فلم يكن معه من التَّمام في فنون الشِّعر ما يكون به الشَّاعر التَّامُّ ، أو الأديب الكامل الأداة ، وكم مِنْ مرَّةٍ كلَّمته في ذلك ، ونبَّهتُه إلى أنَّه كالنَّمط الواحد ، وأنَّه يجب أن يترسَّل شعرُهُ بين النُّفوس الإنسانيَّة ، وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فإذا كانت السِّياسة من الحياة ؛ فليست الحياة هي السِّياسة ، ولا ينبغي أن يكون شعره كلُّه كشمس الصَّيف ، فإنَّ للرَّبيع شمساً أجمل منها ، وأحَبَّ ، كأنَّها مجتمعة من أزهاره ، وعطره ، ونسيمه .

ولقد كان يفخر بأنَّه (الشَّاعر الاجتماعيُّ) ، وهذا لقبٌ ميَّزه به صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيَّام كان في مصر قديماً ، فتعلَّق به حافظٌ ، ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسه ، وللملكة الَّتي اختصَّ بها ، قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : أنا لا أَعدُّ شاعراً إلا مَنْ كان ينظم في الاجتماعيَّات . فقلت له : وما لك لا تقول بالعبارة المكشوفة : إنَّك لا تعدُّ الشَّاعر إلا مَنْ ينظم مقالات الجرائد .

ولا بدَّ لي أنْ أُبسِّط هذا المعنى في هذا الفصل ، فإنَّه كان يخيَّل إليَّ دائماً : أنَّ شاعرنا (حافظ) خُلِقَ للتَّاريخ في أصل طبيعته ، ثمَّ زيدت فيه موهبة الشِّعر ؛ ليكون مؤرِّخاً حيَّ الوصف ، بليغ التَّأثير ، قويَّ التَّصرُّف ، ومن ثمَّ جاء أكثر ما نظمه ، وأساسه للتَّاريخ ، والسِّياسة ، وصحَّ له بهذا الاعتبار أن يقول : إنَّه الشَّاعر الاجتماعيُّ ، ولكنَّ مادَّة الشِّعر غير روح الشِّعر ، فإذا كان في المادَّة اجتماعيٌّ ، وسياسيٌّ ، فليس في الرُّوح إلا الشَّاعر على إطلاقه ، والاجتماعيَّات ليست كلَّ حقائق الحياة ، وهي بعد ذلك معانٍ خاصَّةٌ محصورةٌ في زمنها ،

ومكانها ، على أنَّ الحقائق ليست هي الشِّعر ، وإنَّما الشِّعر تصويرها ، والإحساس بها في شكلٍ حيٍّ تلبسه الحقيقة من النَّفس ، فالشَّاعر الاجتماعيُّ شاعرٌ في حيِّزٍ محدودٍ من وجوه الشِّعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كلَّ شعره ؛ فلا يسمَّى شعره فنّاً ؛ إذ كان الفنُّ إنسانيّاً ، وكان شاملاً عامّاً ، والمقاييس الَّتي يطَّرد عليها الفنُّ الأدبيُّ لا تكون في الزَّمن ، ولا في الموضع ، بل في النَّفس الإنسانيَّة ؛ الَّتي لا تخصُّ بوقتٍ ، ولا مكانٍ ، فإذا لم يكن الشِّعر إنسانيّاً عامّاً يولد كلُّ جيلٍ من النَّاس ، فيجده كأنَّما وضع له ، وارتهن بأغراضه ، وحقائقه ، فهو شعرٌ (كالأخبار المحليَّة) ، وهذا وجه الشَّبه بينه وبين ما أشرتُ إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد .

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء الَّتي نحن منها في الإنسانيَّة ، والطَّبيعة ، والجمال ، وحقائق الحياة ، والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنَّه يوم كذا من شهر كذا سنة كذا . . . فإذا مات اليوم ماتت الجريدة ، ثمَّ تولد ، ثمَّ تموت ، وقد أدرك المتنبِّي سرَّ الشِّعر ، وأنَّه قائمٌ على تحويل الشُّعور الإنسانيِّ إلى معرفةٍ إنسانيَّةٍ ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يُمحى من العربيَّة ما بقيت ، وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض ، والنَّقص ، وعلى أنَّ المتنبِّي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحبِّ ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكنَّ حكمته الإنسانيَّة ، ودقَّة أوصافه ، وإقامته الفضائل ، والرَّذائل في كمالها الفنِّيِّ مقام تمثيل بارعةٍ من الجمال ، كلُّ ذلك ترك شعره مستمرّاً باستمرار الحياة ، وباستمرار الإنسانيَّة ، وباستمرار الذَّوق .

إنَّ هذا الكون مبنيٌّ في نفسه ممَّا يعلم العلم تركيبه ، ولا يعلم سرَّ تركيبه إلا الله وحدَه ، ولكنَّه مبنيٌّ في أنفسنا من عمل الحواسِّ ، ثمَّ من التَّعليل ، والتَّفسير ، أمَّا الحواسُّ ففي كلِّ حيٍّ ، لا تُخلق بصناعةٍ ، ولا عملٍ ، وأمَّا التَّعليل ، والتَّفسير فهما من صناعة الشَّاعر ، والأديب ، فكلاهما يُخلق لإتمام الخلق في الحقيقة ، وهي منزلةٌ لا أدري كيف يمكن أن تمسخ حتَّى تقتصر على معنى الشَّاعر الاجتماعيِّ ، أو السِّياسيِّ ، فترجع به نمطاً واحداً ، مع أنَّ الآثار الأدبيَّة ـ وفي جملتها الشِّعر ـ إنْ هي إلا قوى الفكر ، وإلهام النَّفس ، وبصيرة الرُّوح مسجلةً كلّها في بواعثها ، وأسبابها من نفسٍ عاليةٍ ممتازةٍ ، وهذه القوى كثيرة التَّحوُّل ، فيجب ضرورةً أن تكون آثارها كثيرةَ التَّنوُّع ، وتنوُّع الصُّور الفكريَّة في آثار الشَّاعر ، أو

الأديب ومجيئها متوافرةً متتابعةً هو معيار أدبه ، وقياس نبوغه عالياً ، أو نازلاً ، ومتَّبعاً ، أو مبتكراً ، وفيما يُضيء من نواحيه ، وما ينطفئ .

على أنَّ شاعرنا الاجتماعيَّ (كما كان يحبُّ أن يوصف رحمه الله) وإن كان قد نفخ في روح الشَّعب أنفاساً إلـٰهيَّةً ، وأحسن في وصف حوادثه ، وآلامه ، وعيوبه ، وأبلغ البيان في كلِّ ذلك ؛ فإنَّه نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصَّحيح ، فكان في منزلته بمكان الشُّرطيِّ في الطَّريق : يقف للجرائم ، والحوادث ، وعلى حين أنَّ مقامه الاجتماعيَّ من الشَّعب مقام المعلم في مدرسته : يجلس للطِّباع ، والأخلاق . ليس الشَّأن أن توجد في شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها ، أو أقلُّها ، فإنَّ فوق هذه منزلةً أعلى منها ، وهي أن توجد حوادث النَّهضة بشعر الشَّاعر ، وأن يكون في شعره العنصر الناريُّ من اللُّغة الشَّعبيَّة .

على أنَّ (حافظ) رحمه الله أدرك كلَّ هذا في آخر عهده ، فكان يريد أن يميت ديوانه ، ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيه ألف بيت ، ويسقط ما عداها وإن . . . وإن كان فيه شعرٌ اجتماعيٌّ . . . ومع هذا النَّقص الَّذي بعثت عليه طبيعة الزَّمن ، وطبيعة الشَّاعر معاً ، فإنَّ تمام حافظ في مذهبه الاجتماعيِّ الَّذي نبغ فيه جاء من وراء القوَّة وفوق الطَّاقة ، لا يجاريه فيه شاعرٌ آخر ؛ بحيث دلَّ على أنَّ النَّابغة قدرٌ إلـٰهيٌّ لا ينقص من عظمته أن يكون حادثةً واحدةً تدوِّي دويَّها في الدُّنيا ، فهو مُيسَّرٌ منذ نشأته لما خُلق له من ذلك ، فأحكمته المدرسة الحربيَّة ، ثمَّ قيَّدهُ الجيش ؛ ثمَّ تقاذفه السُّودان ، ثمَّ قذف به الظُّلم ، ثمَّ تولاه إمام عصره الشَّيخ محمد عبده ، وهو كذلك في غاياته الوعرة ، ومقاصده العمرانيَّة ، ومعاناته للإصلاح ـ مدرسةٌ حربيَّةٌ ، وجيشٌ ، وفلاةٌ ـ فلم يكن حافظ إلا الصَّوت الإنسانيَّ الَّذي أُعدَّ بخصائِصِه للتَّعبير عن حوادث أمَّته ، وخصائصها ، وكأنَّه في نقلته من السُّودان إلى مصر قد انتقل من جيشٍ يحارب الأقوام الأعداء لأمَّته ، إلى جيشٍ آخر يحارب المعاني الأعداء لأمَّته .

* * *

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١ ، وكان الكتاب الأوَّل الَّذي هداه إلى سرِّ الأدب العربيِّ ، وأرهف ذوقه ، وأحكم طبيعته ، هو كتاب « الوسيلة الأدبيَّة » للشَّيخ حسين المرصفي ، المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة ، ففي هذا الكتاب قرأ

حافظ خلاصةً مختارةً محقَّقةً من فنون الأدب العربيِّ في عصوره المختلفة ، ودرس ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ بها الذَّوق ، ووقف على أسرار تركيبها ، وعرف منه الطَّريقة الَّتي نبغ بها الباروديُّ ، وهي قراءته دواوين فحول الشُّعراء من العرب ، ومَن بعدهم ، وحِفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذٍ قريحته على الحفظ ، ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره ؛ إذ كانت قريحته كآلة التَّصوير : لا تنبَّه لشيءٍ إلا علقته ، وهذا سببٌ من أسباب ضعف خياله ، ولكنَّه ردَّ عليه من القوَّة في اللُّغة ما تناهى فيه إلى الغاية .

واتَّفق لذلك العهد أن طبعت لزوميَّات المعرِّي في مصر ، فتناولها حافظ ، واستظهر أكثرها ، فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشِّعر الاجتماعيِّ ، والفرق بين حافظ وبين المعرِّي في الموهبة الفلسفيَّة هو الَّذي نفذ بالمعرِّي إلى أسرارٍ كثيرةٍ ، ووقف بحافظ عند الظَّاهر وما حوله ، يطير هناك ، ويقع .

وقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه النَّاحية ، فاستصعبت عليه أسرارٌ ، واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشَّرِّ في الحياة ، والجمال ، والحسن في الخليقة ، والجلال ، والإبداع في الكون ، والإقرار ، والشَّكُّ في كلِّ ذلك ، وقد بلغ المعرِّي من هذا مبلغاً لا بأس به إلا أنَّه لم يُصفَّ كما تصفَّى الأشياء في عينٍ مبصرةٍ ، فخبط ، وخلَّط ، ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصَّحيح والمريض جميعاً . وتابعه حافظ في طريقةٍ أخرى ، سنشير إليها بعد .

وفُتن شاعرنا بما قرأ في « الوسيلة » من شعر الباروديِّ ، فأصبح من يومئذٍ تلميذه ، وسار على نهجه في قوةِّ اللَّفظ ، وجزالة السَّبك ، ومتانة الصَّنعة ، وجودة التَّأليف على نغم الألفاظ ، وأجراس الحروف ، ولكنَّه لم يدرك شأو البارودي في ذلك ؛ لأنَّ هذا جمع من دواوين الشُّعراء ، وكتب الأدب ما لم يتَّفق لغيره في عصره ، وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدُّنيا في ألف سنة من تاريخ البلاغة العربيَّة ، ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في الصَّنيع ، ولزمها إلى آخر مدَّته .

وابتدأ يعالج الشِّعر في السُّودان ، وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف الهمِّ المستولي عليه من جميع جهاته ؛ إذ كان يتيماً فقيراً مشرَّداً ، ويرى نفسه شاعراً تصدُّه الحياة عن منزلة الشَّاعر ، وعن أمكنة الشِّعر ، كالَّذي غُصب ميراثُه من

عرشٍ ، ومُلكٍ ، ونُفي إلى غير أرضه ، ووضعت روحه بإزاء روح الفقر ، وقيل لها : عدوٌّ ما من صداقته بُدٌّ .

ثمَّ جاء مصر ، واتَّصل بالإمام الشَّيخ محمد عبده ، واستقال من الجيش ، وفرغ للأدب ، فبدأ من ثمَّ تكوينه الأدبي المندمج المحكم ، أمَّا قبل ذلك إلى سنة ١٩٠١ الَّتي طبع فيها الجزء الأول من ديوانه ؛ فكان شعره قليلاً ظاهر التَّكلُّف ، وأكثره يدلُّ على طريقةٍ مضطربةٍ لم تستحكم ، وفكرٍ لم ينضج ، وموهبةٍ في التَّوليد الشِّعري بينها وبين الاستقلال أمدٌ قريبٌ .

ودرس في مدرسة الشَّيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥ ، وهذا الإمام ـ رحمه الله ـ كان من كلِّ نواحيه رجلاً فذّاً ، وكأنَّه نبيٌّ تأخَّر عن زمنه ، فأُعطي الشَّريعة ، ولكن في عزيمته ، ووُهبَ الوحي ، ولكن في عقله ، واتَّصل بالسِّرِّ القدسي ، ولكن من قلبه ، ولولا هو ، ولا أنَّه بهذه الخصائص ؛ لكان حافظ شاعراً من الطَّبقة الثَّانية ، فإنَّه من الشَّيخ وحدَه كانت له هذه القوَّة الَّتي جعلته يصيب الإلهام من كلِّ عظيمٍ يعرفه ، وكان له من أثرها هذا الشِّعر المتين في وصف العظماء ، والعظائم ، وهو أحسن شعره .

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتَّى تنطقه بالوحي نفسيَّتهم التَّاريخيَّة الكبرى ، ولا تولاه ملكٌ ، أو أميرٌ يرغب في أدبه رغبة أديبِ ملكٍ ، أو أديبِ أميرٍ ، ليظهر منه عبقريَّةٌ جديدةٌ في التَّاريخ ، ولا عرف الحبَّ الَّذي يجعل للشَّاعر من سحر الحبيب ما يجمع النَّفسيَّة التَّاريخيَّة ، والملكيَّة معاً ، ويزيد عليهما ، وهذه الثَّلاثة الَّتي لم تتَّفق لحافظ هي الَّتي لا ينبغ الشَّاعر نبوغاً يفرده ، ويميِّزه إلا بواحدٍ منها ، أو باثنين ، أو بها كلِّها ، غير أنَّ حافظاً وجد في الإمام ما هو أسمى من كلِّ هؤلاء في النَّفس والجاذبيَّة ، وعرف فيه من ذوق الأدب ، والبلاغة ما لم يعرف شاعرٌ في ملكٍ ، ولا أميرٍ ؛ وقد حضر دروسه في المنطق ، وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وخرج منها بذوقه الدَّقيق ، وأسلوبه المتمكِّن ، وحضر مجالسه ، وخرج منها بمواضيعه الاجتماعيَّة ، وأغراضه الوثَّابة ، وحضر نظرات عينيه ، وخرج منها بروحانيَّةٍ قويَّةٍ ، هي الَّتي تتضرَّم في شعره إلى الأبد ، فحافظ إحدى حسنات الشَّيخ على العالم العربيِّ ، وهو خطَّةٌ من خططه في عمله للإصلاح الشَّرقيِّ الإسلاميِّ ، والنَّهضةِ المصريَّة الوطنيَّة ، وإحياء العربيَّة ، وآدابها ؛ وإذا ذُكرت

حسنات الشَّيخ أو عُدَّت للتَّاريخ ، وجب أن يقال : أصلح ، وفعل ، وفعل ، وفسَّر القرآن ، وأنشأ حافظ إبراهيم .

ومضى شاعرنا موجَّهاً بفكرة الإمام ، وروحه ، واستمرَّ في ذلك بعد موت الشَّيخ ، كما يستمرُّ النَّهر إذا احتفر مجراه ، لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري إلى مَقارِّه .

* * *

وكان حافظ في بديعه ، وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد ، كما قلنا ، وهو مثله إبطاءً في عمل الشِّعر ، وتَلوُّماً على حَوْكِه[١] ، وانفراداً بكلِّ لفظةٍ منه ، وتقليباً للنَّظر فيما بين الكلمة والكلمة ، واعتبارَ كلِّ بيت كالعروس : لها معرضٌ ، وحليةٌ ، وزينةٌ ، فإذا عمل شعراً ؛ انبثَّت خواطره في كلِّ وجه ، وذهب وراء الألفاظ ، والمعاني ، وترك هاجسه (العقل الباطن)[٢] يعمل عمله فيما التوى عليه[٣] ، أو استعصب ، وهو واثقٌ أنَّه سينقاد ، ويتسهَّل بقوَّةٍ إن لم تكن فيه الآن ؛ فستكون فيه ؛ ثمَّ ينظم ما يتسمَّح إن جاء في موضعه من القصيدة ، أو في غير موضعه ، فلا يتبع فيها نسَقاً بعينه . وإنَّما القصيدة عنده كلُّ ما سيجتمع من بعد ، وتتهيَّأ أجزاؤه متَّسقةً ، ومبعثرةً كما يجيء بها الإلهام ، وأسباب الاتِّفاق ، فالقصيدة أولاً في أبياتها ، ثمَّ تكون أبياتُها فيها ؛ أيْ : ثمَّ ترتَّب الأبيات ، وتنزَّل في منازلها ، ولا ينظم إلا متغنِّياً ، يروض الشِّعر بذلك ؛ لأنَّ النَّفس تتفتَّح للموسيقا ، فتسمح ، وتنقاد ، وهو يتَّبع في ذلك طريقةً معروفةً ذكرها ابن حجَّة الحموي في كتابه « خزانة الأدب » وهي من وصية أبي تمَّام للبحتريِّ ، وكان المتنبِّي يعمل عليها ؛ وبالجملة فإنَّ حافظاً يرتهن فكره بالقصيدة الَّتي ينظمها ويتوفَّر عليها[٤] ، وعلى أسبابها ، لا كما يفرغ الشَّاعر للشِّعر ، ولكن كما يتوفَّر المؤلف العظيم على كتابٍ يؤلِّفه ؛ وهو كذلك يبطئ في نثره أكثر ممَّا يبطئ في الشِّعر ، دلَّني بنفسه ـ رحمه الله ـ على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة « البؤساء » وقال : إنَّه ترجمها

---

(١) « حوكه » : الحوك : النَّسج .
(٢) كذا سمَّاه المؤلف هنا ، وقد سمَّاه في غير هذا الموضع : « الواعية الباطنة » . (س) .
(٣) « التوى عليه » الأمر : عَسُرَ .
(٤) « يتوفر عليها » : توفَّر على كذا : صرف إليه همَّته .

في خمسة عشر يوماً[١] .

وحضرته مرَّةً يترجم أسطراً من الجزء الأول (في قهوة الشِّيشة) يخطُّها في دفتر صغيرٍ دون حجم الكفِّ ، فاجتمعت له ثلاثة أسطر في ثلاث ساعات ، وهذا لا يعيبه ما دام يريد قسط الفنِّ ، وما دام يحاولُ أن يخرجَ الكلمات من عالمها إلى عالمه هو المتموِّج من الألفاظ ، والعبارات ، يمثل الكواكب في الاستواء ، والجاذبية ، والشُّعاع ، والرَّونق ، والجمال .

ويرى مع الصِّناعة أن يكون سبك شعره سبك البدويِّ المطبوع : جزلاً ، سهلاً ، مشرقاً؛ ممتلئاً ، متعادل الأجزاء والتَّقاسيم ، يرنُّ رنيناً كأنَّما قذفت به سليقة أعرابيٍّ فصيح ، تحت ذوء كواكب البادية ، على برد الرَّمل في نسمات اللَّيل حين تمتلىء تلك النَّفس البدويَّة بحنين الحبِّ ، أو شوق الجمال ، أو عظمة القوَّة ، وهذا هو الأصل الَّذي أتَّبعهُ ، وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ ، وقرَّظني[٢] به في الجزء الأول من ديواني ، فقال :

أنـــت واللهِ كـــاتـــبٌ حضـــريٌّ إنْ عـــددنـــاك شـــاعـــراً بـــدويّـــا

ولو أنَّك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب ، وشعراء القرن الأوَّل ، لالتأم به ، وزاد عليه في الصِّناعة ، وبعض المعنى ، وقلَّ أن تجد في شعره كلمةً ينبو بها مكانُها ، إلا ألفاظاً قليلةً كان يستكرهها ، يحسب : أنَّه يستظرِف منها ، ويرى في غرابتها شيئاً جديداً ؛ وهذا من خطأ رأيه في الأسلوب ؛ لأنَّه مع بلاغته كان ينقصه أن يكون فيلسوفاً في البلاغة ؛ وأنا أرى : أنَّه لو تمَّت له الموهبة الفلسفيَّة ؛ لما جاراه شاعرٌ آخر ، ولكنَّ الكمال عزيزٌ[٣] في البشريَّة ؛ وقد عرفتُ رأيه في الأسلوب في سنة ١٩٠٦ ؛ إذ نشرت له مجلَّة « الأقلام » التي كان يُصدرها صاحبنا الأديب جورج طنُّوس كلماتٍ كان يريد أن يضمِّنها كتابه « ليالي سطيح » أظهر فيها رأيه في الشُّعراء ، فقال في إسماعيل صبري : يقول الشِّعر لنفسه ، لا للنَّاس . وفي شوقي : أرقُّ الشُّعراء طبعاً ، وأسماهم خيالاً . وفي مطران :

(١) لمَّا أُهدي إليَّ هذا الجزء كنَّا قبل الظهر ، فلم يدعني حتَّى قرأتُه كلَّه معه إلى العصر ، وكتبتُ عنه في المقطَّم بعد ذلك . (ع) .

(٢) « قرَّظني » : قرَّظه : مدحه ، وأثنى عليه وهو حيٌّ .

(٣) « عزيز » : قليل .

أسرعهم بديهةً ، وأقدرهم ابتكاراً . وقال فيَّ ـ ولم يكن مضى عليَّ إلا ستُّ سنين في طلب الأدب ـ : مكثارٌ ، راقي الخيال ، بعيد الشَّوط في ميادين الأدب ، غير ناضج الأسلوب . فلمَّا اجتمعت به فاتحته في ذلك ، وسألته رأيه في الأسلوب النَّاضج ، فلم أرَ عنده طائلاً ، وكلُّ ما قاله في ذلك : إنَّ الشَّيخ عبد القاهر الجرجانيَّ قرَّر : أنَّ البلاغة ليست في اللَّفظ ، ولا في المعنى ولكنَّها في الأسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ، ولا قاله غيره ، فإنَّ الأسلوب عنده « طريقةٌ مخصوصةٌ في نسق الألفاظ بعضها على بعض ؛ لترتيب المعاني في النَّفس ، وتنزيلها » وأنَّ المنزلة من حيِّز المعاني دون الألفاظ ، وأنَّها ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك .

وقد قرَّرت له : أنَّ للألفاظ ما يشبه الألوان ، فليست كلُّها زرقاء، ولا صفراء ، ولا حمراء ، وربَّ لفظةٍ رقيقةٍ تقع ضعيفةً في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كلّ بلاغتها ، وقوَّتها ، كفترة السُّكوت بين أنغام الموسيقا : هي في نفسها صمتٌ لا قيمة له ، ولكنَّها في موضعها بين الأنغام نغمٌ آخر ذو تأثيرٍ بسكونه ، لا برنينه ؛ وهذا من روح الفنِّ في الأسلوب .

وأدرك شاعرنا من يومئذٍ ما سمَّيته : « قوَّة الضَّعف » ، ولعلَّ هذا هو السَّبب في أنَّ طبعه رجع يعدل به إلى التَّسهيل ، حتَّى أنَّه لتقع في شعره أبياتٌ متهافتةٌ ، فيأتي بها ، ولا ينكرها ؛ ولقيني مرَّةً ، فأنشدني قول الشَّاعر :

أنا لم أرزَق محبَّتَها إنَّما العبدُ ما رُزِقا

وجعل يُعجِّبني من بلاغة قوله : (لم أرزق) وأنَّها مع ذلك ضعيفةٌ مُبتذَلةٌ تجري في منطق كلِّ عاميٍّ ، قلت : ولكن (محبَّتها) جعلتها كمحبَّتها .

* * *

وضعف الموهبة الفلسفيَّة في حافظ عوَّضه ناحيةً أخرى من أقوى القوَّة في الشِّعر ، وهي اهتداؤه إلى حقيقة الغرض الَّذي ينظم فيه ، وتركه الحواشي ، والزِّيادات ، وانصراف قواه إلى دقَّة الوصف حين يصف ، وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره ؛ فزاد ذلك في رونق شعره ، ومائه ، ونحا بِه منحى المطبوعين فخرج يتدفَّق سلاسةً ، وحلوةً ممتلئاً من صواب المعنى ، وبلاغة الأداء ، وقوَّة التَّأثير ، وبهذا نبغ في الرِّثاء ، ووصف الفجائع نبوغاً انفرد به ، حتَّى

لأحسب : أنَّ هناك رُوحاً يمدُّه في هذه المواقف ، وأنَّ الحقيقة تتبرَّج[١] له في هذه العظائم خاصَّةً ؛ ليرى منها ما لا يراه غيره ، وهو يتَّحد بالعظيم الَّذي يرثيه ، فيجيد فيمن يعرفه إجادةً منقطعة النَّظير ، تتبيَّن الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة ؛ وأحسبه يسأل روح العظيم الَّذي يصفه ، أو يرثيه : أين المعنى الذي فيه حقيقتك ؟ وأين الحقيقة الَّتي فيها معناك ؟ .

والفلسفة الشِّعرية كلُّها أن يحلَّ في الشَّاعر الملهم ذلك السِّرُّ الجميل الجاذب والمنجذب معاً ، المستقرُّ والمتحوِّل جميعاً ، الباطن والظَّاهر في وقتٍ ؛ فيكتنه[٢] الشَّاعر ما لا يدركه غيره ، فيقف على الجمال ، والحسن ، والرِّقَّة ، ويلهم الحكمة ، والبصيرة ، ويتناول الأغراض بالتَّحليل ، والتَّركيب ، ويؤتَى التَّعبيرَ عن كلِّ ذلك في طريقةٍ خاصَّةٍ به ، هي أسلوبه ، وهذا لم يتَّفق على أتمِّه ، وأحسنه في حافظ ، فقصَّر به في توليد المعاني المبتكرة ، ونزل به في الغزل ، ووصف الجمال ؛ بيد أنَّه اتَّفق له مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألِّم من شعره) ؛ أي : الرِّثاء ، والشَّكوى ، ووصف الفجيعة ، ولو ذهبتَ تستعرض المراثي في الشِّعر العربيِّ ، ومثَّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الَّذين خالطهم ، كالأستاذ الإمام ، والباروديّ ، ومصطفى كامل ، وثروت ؛ لراعك أنَّك واجدٌ للشُّعراء ، ما هو أسمى من معانيه ، وأقوى من خياله ، ولكنَّك لا تجد البتَّة ما هو أفخم ، وأدقُّ ممَّا جاء به في هذا الباب ، كأنَّه متفرِّدٌ في العربيَّة بهذه الخاصَّة .

وهذا المعرِّي يقول :

ولولا قولُك الخلاَّق ربِّي ... لكان لنا بطلعتك افتتانُ

ويقول في شعرٍ آخر :

أسهب في وصفه علاك لنا ... حتَّى خشينا النُّفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشَّيخ محمد عبده :

---

(١) « تتبرَّج » : تظهر زينتها ، ومحاسنها .

(٢) « يكتنه » : يدرك الحقيقة ، ويبلغ الكنه .

فلا تنصبوا للنَّاس تمثال « عبده » وإن كان ذكرى حكمةٍ وثباتِ
فإنِّي لأخشى أن يضلُّوا فيُومنوا إلى نور هذا الوجه بالسَّجداتِ

مع أنَّ معنى حافظ مأخوذٌ منهما ، ولكن انظر كيف جاء به ؟ !

ويقول المعرِّي في رثاء أبيه :

ولو حفروا في ردَّة ما رضيتُها لجسمك إبقاءً عليك من الدَّفنِ

ويقول في رثاء غيره :

واخبُوَاه لأكفانٍ من ورق المصـ ـحف كبراً عن أنفس الأبرارِ

وهذان أيضاً كالصَّعاليك عند قول حافظ في البارودي :

لو أنصفوا أودَعوه جوف لؤلؤةٍ من كنز حكمته لا جوفَ أخدودِ
وكفَّنوه بِدَرْجٍ من صحيفته أو واضِحٍ من قميص الصُّبح مقدودِ

مع أنَّ حافظاً ألمَّ بقول المعرِّي . ومن بديع ما اتَّفق له من قصيدة (الأمَّتان تتصافحان) قوله يصف السُّوريِّين :

رادوا المناهلَ في الدُّنيا ولو وجدوا إلى المجرَّةِ ركباً صاعداً ركبوا
أو قيل في الشَّمس للرَّاجين منتَجعٌ مَدُّوا لها سبباً في الجوِّ وانتدبوا

فاقرأ هذين ، واقرأ بعدهما قول المتنبِّي في سيف الدَّولة :

وَصولٌ إلى المُستَصعبات بخيله فلو كان قرن الشَّمس ماءً لأوردا

فإنَّك تجد بيت المتنبِّي صعلوكاً على بيتي حافظ ، مع أنَّه المبتدع السَّابق .

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعةٍ يخاطب بها الأمريكان ، نشرها في المقطم من ثلاث سنوات ، أو نحوها ، قال :

وتخذتُم موج الأثير بريداً حين خِلتم أنَّ البروق كُسالى

واتَّفق يومئذٍ أن كنت جالساً في زيارة الصَّديق الأستاذ فؤاد صروف : محرِّر المقتطف ، فجاء حافظ ، فلم يكد يصافحني حتَّى قال : كيف هذا البيت : وتخذتُم موجَ الأثير بريداً . . . إلخ ، فأثنيت عليه الذي يهوى وهنَّأته بهذا المعنى ، وأظهرت ما شاء له من الإعجاب ، ولكنِّي أضمرت عجبي من حسن ما اتَّفق له ؛ فإنَّ الجمال الشِّعريَّ في البيت إنَّما هو في استعارة الكسل للبروق ، وهذا بعينه من قول ابن نباتة السَّعدي في سيف الدَّولة :

وما تمهَّل يوماً فيَّ ندى وردى   إلا قضيتُ لِلمْح البرق بالكسل

غير أنَّ حافظاً نقل المعنى إلى حقِّه ، ومكَّن له أحسن تمكين في صدر كلامه ، وأتمَّ جماله في قوله (حين خلتم) فاقتطع المعنى ، وانفرد به ، وعاد معنى السَّعدي كالصُّعلوك على باب بيته ، وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ . فلم أره من بعدها . رحمه الله .

وما مرَّ بك إنَّما كان من صناعة الشَّاعر في غير الجزء الأوَّل من ديوانه بعد أن استفحل ، وتخرَّج في مدرسة الإمام ، أمَّا في الجزء الأوَّل ؛ فله هو صعاليك . . . كقوله في الخمر :

خمرة قيل إنَّهم عصروها   من خدود الملاح في يوم عُرسِ

فهذا البيت صعلوكٌ عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَة من كفِّ ظبيٍ كأنَّما   تناولها من خدِّه فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام مَن لم ينضج في البيان ، ولا الذَّوق ، لا يكاد يتوهَّم معه إلا أنَّ في خدود الملاح (خرَّاجات) عُصرت . . . وعلى ضدِّ هذا قول ابن الجهم (تناولها من خدِّه) فهي كلمة أكثر نعومةً من ذلك الخدِّ ، وأجمل نضرةً .

وقول حافظ في مدح الخديوي :

يا من تَنافسُ في أوصافه كلمي   تنافُس العَرَب الأمجاد في النَّسبِ

فهو صعلوكٌ على بيت أبي تمَّام :

تَغايَرَ الشِّعر فيه إذ سهرت له   حتَّى ظننتُ قوافيه سَتَقْتَتِلُ

ولا نطيل الاستقصاء ، فإنَّما نريد التَّمثيل حسبُ .

وكان الشَّاعر أوَّل نشأته يأخذ في طريقة المعرِّي الذي عمي عن الطَّبيعة ، فجعل يخلقها من فكره ، ومحفوظة بمبالغاتٍ كاذبةٍ يُغرق فيها ، يحسب أنَّه بذلك يعظِّم الحقائق ، فتخرج له الأخيلة الكبيرة ، وما يدري : أنَّه بهذا الغلوِّ لا يجيء إلا بالأباطيل الكبيرة . . . ولكن حافظاً في مزاجه ، وتركيبه ، ونشأته كان رجلاً مبنيّاً على الوضوح ، والقصد ، فلم يفلح في طريقة المعرِّي . ووضوحه كذلك باعده من الفلسفة ، وإبهامها ، ومن الطَّبيعة ، وألغازها ، ومن

الغزل ، ووساوسه ، وهو الَّذي أدَّاه إلى الشَّغف بالحقيقة ، واستخلاصها في كلِّ أغراضه ؛ الَّتي أجاد فيها ، ومن خلا شعره ، أو كأنَّه خلا . . . من أوصاف الطَّبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمِّل ، ومن أوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق .

* * *

وأنت فلا تحسبنَّ الشَّاعر يجيد في الغزل ، والنَّسيب من أنَّه شاعرٌ يحسن الصَّنعة ، ويجيد الأسلوب ، فيكون غرضٌ من الشِّعر سبيلاً إلى غرضٍ ، وفنٌّ عوناً على فنٍّ ، وتكون رقَّة الألفاظ ، وهَلهلة النَّسج ، وقلبي ، وكبدي ، ويا ليلةً ، ويا قمراً ، ويا غزالاً . . . وأشباه ذلك ـ غزلاً ونسيباً ، كلا ! ثُمَّ كلا ! والثَّالثة كلا أيضاً . . !

إنَّ الغزل ، وأوصاف الجمال موهبةٌ في الشَّاعر ، أو الكاتب تُسخَّرُ لها قوى هي أشبه في معجزاتها بما سُخِّر لسليمان من قوى الجنِّ ، والرِّيح ، غير أنَّها قوى آلامٍ ، ولذَّات ، ووساوس ، تلك عظمةٌ في بعض النُّفوس الشَّاعرة ، كعظمة الملوك والأبطال ، غير أنَّها لا تكمل إلا خائبةً ، أو مغلوبةً ، فإذا انتصرت ؛ سقطت ، فلا بدَّ لها من تاريخٍ ، وحوادث ، ومزاجٍ عصبيٍّ يُهيَّأ لها بروحانيَّةٍ شديدةِ الحسِّ ، شديدة الفَوْرة ، ثائرةٍ أبداً ، لا تهدأ إلا على توليد معنىً بديعٍ في جمال مَنْ تُحِبُّه ، أو كجماله ، ثمَّ إذا هدأت بذلك ؛ أثارها : أنَّها هدأت ، فتعود إلى التَّوليد ، فلا تزال تبتدع ، وتصف كأنَّها آلة تعبيرٍ تدور بقلبٍ ، وعصبٍ . هناك قوَّتان : إحداهما تؤتي الحبَّ كما يصلح غراماً ، وعشقاً ، والأخرى فوق هذه ، تؤتي الحبَّ كما يصلح فكراً ، وتعبيراً ؛ والأولى تجعل صاحبها عاشقاً يحبُّ ، ويدرك ليس غير ، والثَّانية تجعله محبّاً عمله أن يُنقل من لغة ما في نفسه إلى ما حوله ، ومن لغة ما حوله إلى ما في نفسه ؛ فهو مترجم النَّفس إلى الطَّبيعة ، ومترجم الطَّبيعة إلى النَّفس ؛ والَّذي أعرفه : أنَّ حافظاً لم يرزق لا هذه ، ولا تلك ، فلا طبيعة فيه للغزل ، وفلسفة الجمال ، ثمَّ إنَّ التَّاريخ حصره في (الشَّاعر الاجتماعيِّ) الَّذي اختار أن يمتاز به ، فهو في أكثر شعره كأن ليس فيه شخصٌ ، بل فيه شعبٌ مأسورٌ غفل عن الجمال ، وعن الطَّبيعة ، وعن النَّشوة بهما ؛ إذ يعيش في معاناة الحرِّيَّة لا في

التَّأمُّل الجميل ، وفي أسباب القوَّة لا في أسباب الرِّقَّة ، ويريد أن يعمل ليوجِدَ حقيقته قبل أن يعمل ليُبدع خياله .

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزلٌ قليلٌ كان كلُّه متابعةً ، وتقليداً في فنٍّ لا يحسن التَّقليد إلا فيه خاصَّةً ، عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديوي مطلعها :

كـم تحـتَ أذيـال الظَّـلام متيَّـمٌ   دامـي الفـؤاد وليلـه لا يعلـمُ

وقلَّد ابن أبي ربيعة في حكاية حبٍّ لفَّقها تلفيقاً ظاهراً ، ثمَّ زعم : أنَّ الحبيبة قالت له في آخرها :

فاذهب بسِحرك قد عرفتُك واقتصد   فيمـا تـزَيِّـن لِلْحَسـانِ وتُـوهـم

وكلمة صاحبة ابن أبي ربيعة :

أهـذا سحـرك النِّسـوا   ن قـد عـرَّفتنـي الخبـرا

أهذا سحرك النِّسوان . . . هذه كلمةٌ لا تخرج إلا من فم حبيبته آيةً في الظَّرف ، وفيها تجاهلها ، وعرفانها ، وابتسامها ، وإشراق وجنتيها ، وأكاد والله أرى فيها تلك الجميلة ، وهي تدقُّ بيدها على صدرها دقَّة الاستفهام المتدلِّل المتظاهر بالدَّهشة ليتنهَّد فيه الكلام ، والمتكلِّم معاً . أمَّا قول حبيبة حافظ الخشبيَّة ، أو الحجريَّة : « اذهب . . قد عرفتك واقتصد . . » فهذا خليقٌ أن يكون من فم قاضٍ وهو ينصح المتَّهم بعد الأمر بالإفراج عنه . . . أو مأمور قسمٍ عند ضبط الحادثة !

أكثر ظنِّي : أنَّ روحَ حافظ نفسه هي الَّتي أوحت إليَّ الآن هذه (النُّكتة) فإنَّه ـ رحمه الله ـ كان آيةً في هذا الباب ، وله من النَّوادر محفوظةٍ ، ومخترعةٍ ما لا يُلْحَق فيه ، ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً ، وزاول النَّقد ، واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التَّندُّر ، والتَّهكُّم مع ما أوتي من القوَّة في اللُّغة ، والبيان ؛ لكانت النِّعمة قد تمَّت به على الأدب العربيِّ ، ولقلنا في شعره ، وكتابته ، وأدبه ما قال هو في الأستاذ الإمام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهاتٍ .

وما دمنا قد ذكرنا النَّقد فمن الوفاء للتَّاريخ الأدبيِّ أن نذكر مذهب شاعرنا

فيه : فلم يكن عنده منه إلا ذوق الكلام ، وإدراك النَّفرة ، والنَّبوة في الحرف ، والغلط ، والجَسأة في اللَّفظ ، والضَّعف ، والتَّهافت في التَّركيب ، ثمَّ ما يجيش في الخاطر ، أو يتلجلج في الفكر من ذوق المعنى ، وإدراك كنهه والنَّفاذ إلى آثار النَّفس الحيَّة فيه ؛ فكأنَّ النَّقد هو الحسُّ بالكلام ، كما تلمس الحارَّ ، والبارد ، وما بينهما ، ووصف لي مرَّةً إسماعيل صبري باشا ، وأراد أن يبلغ في دقَّة تمييزه ، وحسن بصره بالشِّعر ، وإدراكه دقائق المعاني ، فقال : « ذوَّاقٌ يا مصطفى ! » ولم يزد .

ومذهب الحسِّ بالكلام هذا ، وإن صلح أن يكون من بعض معاني النَّقد ؛ فلا يتهيَّأ أن يكون هو النَّقد بمعناه الفلسفيِّ ، أو الأدبيِّ ، وهو في جملة أمره كقولك : حسنٌ ، حسنٌ ، ورديءٌ ، رديءٌ ، أمَّا كيف كان حسناً ، أو رديئاً ، وبماذا ، ولماذا ، فذلك ما لا سبيل إليه من مذهب (ذوَّاق) . . . ولا وسيلة له إلا العلمُ المستفيض ، والاطِّلاعُ الواسع ، والحسُّ المرهف ، والقدرة المتمكِّنة ، مضافة كلُّها إلى الأدب البارع ، وفلسفته الدَّقيقة ؛ ولا نعرف لحافظ كتابةً في النَّقد البتَّة ، وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) فتناول بعض خصومه بكلماتٍ رأى هو أن يمحوها بعد أن طبعت الكرَّاسة الأولى ، فأسقطها ، وأعاد كتابة المقدِّمة وطبعت مرَّةً ثانيةً ، وكانت عندي النُّسخة الَّتي محاها ، وهذا ما لا أظنُّ أحداً يعرفه الآن ، رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام ، وكان شعره كأنَّه البرق ، والرَّعد .

* * *